

الوسائل المعينة على طلب العلم

وإذا كان كذلك فنقول: كيفية طلب العلم تتفاوت بما كانت عليه؛ فنذكر بعض الوسائل التي يكون طالب العلم بها مستفيداً: فأولاً: الإخلاص في الطلب بأن ينوي في الطلب الاستفادة، يعني: أن يكون مسيطراً من هذه النية صادقة وأن ينوي شرف العلم؛ فإن العلم يرفع أهله: { قُلْ هُنَّ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } { يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آتَاهُمْ دَرَجَاتٍ } يعني أن يرفعه العلم، وليس رفعه عند الناس أن يحترموه وأن يقوموا له، وإنما رفعه عند الله أن يكون له منزلة، وأن يكون له عند الله تعالى رتبة رفيعة؛ بحيث أنه تقبل دعوه ويقبل عمله وبصاعف أحراه، وهذه منزلة لأهل العلم، إذا ذكرت أن الله تعالى يرفع عنده درجات، وإن كنت في الدنيا خاماً، ولكن إذا كنت عند الله رفيعاً فلست بخامل ولا فاسد عند الله تعالى مع حسن العمل، كذلك أيضاً ينوي العمل على بصيرة؛ فإنك مكلف بالعمل ولا بد قبل العمل من التعلم حتى تعرف كيف تعمل، وكذلك أيضاً ينوي نفع المسلمين عندما يحتاجون إليك، وإذا أنت تفتهم وتعلهم وتبيّن لهم الأحكام، ففي ذلك فوائد كثيرة، هذه حسن النية والأعمال بالنيات. كذلك أيضاً عليه بعد ذلك أن يُجَدِّد في الطلب، كيفية الطلب؟ أو لا: أن يأتي العلوم من مبادرها، لا شك أن للعلوم مبادراً؛ فلا يأتي الكتب من أوساطتها ولا من أواخرها، فإنه مأمور أن يتعلم من أول ما يبدأ به طالب العلم، نحن لا نقول: إنه يتلزم كل طالب أن يبدأ بالهجاء قبل كل شيء، لكن إذا كان قد تعلم حروف الهجاء وتعلم الكتابة وما أشبهها فيأتي العلوم من أبوابها، وكل علم باب يطرقه طالب العلم، فمثلاً القرآن لا بد أن يبدأ من مبادراته حتى يتلقنه ويعرف كيف يقرؤه، لا شك أنه يتلقن في الأهمية؛ فلأجل ذلك يبدأ بقراءة المفصل، ثم بعد ذلك يواصل قراءته إلى أن يتم، كذلك أيضاً يحرص على تعلم معانيه، وذلك علم التفسير وما أشبهها. كذلك علم الحديث؛ يحرص على أن يقرأ في المختصرات، فيقرأ في الكتب التي هي مختصرة في علم الحديث، والتي هي صحيحة كالأربعين النووية، وعمدة الأحكام من أحاديث خير الأنام، هذه مبادرات علم الحديث، وبها يعرف كيف يستدل إذا حفظ هذه العمدة أحاديثها؛ نحو أربعينه وزيادة يسهل حفظها. كذلك بقية العلوم يأتيها من مبادرتها، كان مشائخنا يبدؤون بعلم المقدمات كما يبدأ في المراحل الأولى مرحلة الابتدائية وما بعدها، يحتווون طالب العلم أن يبدأ من المبادي، فيذلك يحصل على رتبة أو على منزلة رفيعة، كذلك يواصل إلى أن يصل إلى الرتبة التي بعد المبتدئين؛ ذلك لأنهم قسموا طلبة العلم وحملته إلى مبتدئين ومتقدرين أو مكتملين. فعندها مثل الإمام ابن قدامة -رحمه الله- ألف كتاب في الفقه للمبتدئين وسماه: عمدة الفقه، جعله للمبتدئين الذين في السن العاشرة ونحوها من أعمارهم يحفظونه ويتعلمونه ويتذمرون عليه. ثم جعل كتاباً آخر للمتوسطين وسماه: المقعن، وتوسع فيه بذكر مسائل لم يذكرها في كتاب العمدة، وذكر في بعض المسائل روایتين ليتعدد الطالب على الترجيح. ثم بعد ذلك ذكر كتاباً لمن بعدهم وهو كتاب: الكافي الذي توسع فيه، وذكر فيه مسائل كثيرة، وإن لم يكن يذكر الخلاف غالباً إلا إذا كان الخلاف قوياً، ولما ذكر هذا كله للمشتغلين بالذهب الحنبلي أحب أيضاً أن يذكر كتاباً أو يؤلف آخر للمشتغلين بالذهب الحنبلي، الذي ذكر فيه المذاهب كلها المذاهب الأربع، فهو إنما يحتاجه المتندون والذين يتزودون. فنقول لطالب العلم: عليك أولاً أن تأخذ مبادئ العلوم، وعليك أن تجتهد على حفظ المتنون، كان مشائخنا يحتווون على حفظ المتنون، وبحثون على حفظ عمدة الفقه وعمدة الحديث؛ لأن هذه في الحديث وهذه في الفقه، وكذلك على المتنون التي يستعان بها. ففي الفرائض يحتווون على حفظ المنظومة الرحيبة ويشرحونها للطلاب، وذلك لأن علم الفرائض له أهميته لأنه أول علم يُفَقَّد، ثم يحتווون أيضاً على حفظ متن الأجرمية في النحو؛ وذلك لأنه مختصر وأنه به يقيم الإنسان لسانه ولا يحتاج إلى أي توسيع في الخلافات التي قد تجري بين النحوين، بل إذا حفظ هذه المتنون المختصرة استطاع أن يقرأ بطلاقة وأن يسلم لسانه من الخطأ واللحن وما أشبه ذلك، فهذه حالة المبتدئين في حفظهم لهذه المبادئ. في العقيدة يبدؤون ثلاثة الأصول وذلك لأنها عقيدة؛ ولما فيها من التربية للصغراء على كيفية الاعتقاد وعلى معرفة ما يعتقد، ثم بعد ذلك يقرءون الواسطية ويكلفون بحفظها؛ فمن أراد أن يكون من حملة العلم فإنه يأتي البيوت من أبوابها؛ فيبدأ بحفظ هذه المتنون. تساهل كثير من المعلمين في هذه الأزمة -المعلمون الرسميون في المدارس وفي المعاهد وفي الجامعات-. في أمر الحفظ فلا يكتفون بحفظ المتنون؛ ولعل السبب في ذلك كثرة ما يكون على الطلاب من الفنون ومن المواد التي تتراوح عليهم، فلا يدرى أحدhem بأي شيء يبدأ فيتسامحون معهم في حفظ المتنون، وإلا فإن مشائخنا يهتمون مع تلاميذهem بحفظ المتنون. أولاً: لا يقبلون طالب علم يقرأ عليهم إلا بعد أن يحفظ القرآن الكريم، وإن كانوا من العوام، وإن كانوا معلمون يعلمون القرآن، وإن كانوا أيضاً لا يقرءون القرآن تجويداً وترتيله، ولكن قراءة عامية، وهم وتحفظ عندهم، وكان هناك معلمون يعلمون القرآن، وإن كانوا أيضاً لا يقرءون القرآن تجويداً وترتيله، ولكن قراءة عامية، وهم أيضاً من حفظة القرآن معلمون في المساجد. وبعدما يحفظ القرآن يرشدونه إلى مبادئ المتنون؛ عليك أن تحفظ المتن الفلافي والمتن الفلافي ثم بعد ذلك تأتي وتقرأ، وكان المشائخ يجعلون معلماً للمبتدئين، أو وقتاً لهؤلاء وقتاً لهؤلاء، فالمعلمون الذين للمبتدئين يقرءون أو يشرحون لهم الأربعين النووية، ثم عمدة الحديث وعمدة الفقه والأجرمية والرحيبة هذه المتنون التي يشرحونها للمبتدئين وكذلك ثلاثة الأصول وما أشبهها. أما الذين قد درسوا في ذلك نحو خمس سنين أو عشر سنين وهم على هذا؛ فإنهم يقرءون مع المتوسطين الذين يقرءون من المتنون مثل بلوغ المراد، وزاد المستقنع، وكذلك في النحو الفية ابن مالك وفي التوحيد كتاب التوحيد وما أشبهه، فيكترون مثل هذه المتنون ويحفظون شرحها من المشائخ. كذلك هناك الذين هم قد حفظوا ذلك ويقال لهم المتنون أو العالمون والعارفون هؤلاء يكترون، والغالب أنهم يقرءون الشرح ويقرءون المخطوطات ويكون لهم وقت، فادركتا المشائخ أول الفجر وبعد المغرب للمبتدئين؛ بحيث إنهم يقرأون عندهم طلاب من السنة العاشرة إلى العشرين، هؤلاء يشرحون لهم الرحيبة والفرائض ويعرفون، ويعطونهم أيضاً مسائل في الفرائض يقسمونها، ويكتفون عليهم مسائل في ثلاثة الأصول وفي الأربعين النووية وما أشبهها، فيتدربون إلى أن يبلغوا. بحيث إنهم يتفاوتون في الحفظ فبعضهم قد يحفظ هذه المتنون ويعرف معانيها، ويستطيع أن يدرّب ويستطيع أن يدرس زملاءه ويرد عليهم وهو شرح المتنون ويفتح لهم وجه المتنون في الكتب المتوسطة كالبلوغ والزاد حيث إنهم يحفظونه حفظاً كاملاً، يعني: زاد المستقنع وكذلك أيضاً بلوغ المرام وألفية ابن مالك والتوجيه وكتاب الواسطية وكتاب التوحيد وما أشبهها. هؤلاء هم المتوسطون يكترون حفظ هذه المتنون ويقرءونها مرة بعد مرة، ويرجعون إلى شروحها وهكذا، فإذا هضمواها واستفادوا منها وعرفوا كيف يشرحها أحدهم استطاع التلميذ أن يدرس زملاءه أو من هم في رتبته، استطاع أن يستفيد منه زملاؤه؛ انتقل بعد ذلك إلى المتندون الذين يقرءون في المخطوطات. كان المشائخ يجعلون لهم وقتاً واسعاً، فيجلس أحد المشائخ يجلس في الصحن أي: من نحو الساعة الثامنة إلى الساعة الحادية عشرة أي: قبل الظهر بساعة أو نحوها في هذه الساعات الثلاث يقرءون عليه في كتب موسعة في تفسير ابن كثير وكذا في تفسير البغوي ويقرءون في الشرح في كتاب المغني، وفي كتاب الكافي، وفي الإنصاف الذي هو شرح للمقعن، وفي المبدع وهو أيضاً من شروح المتنون. ويقرءون في شروح كتاب التوحيد كتيسير العزيز الحميد، وفتح المجيد، وكذلك يقرءون أيضاً في كتب المواتع ونحوها، التفسير كتيسير ابن جرير وما أشبهه، وكذلك أيضاً في كتب الردود وما أشبهها؛ وذلك لأن المشائخ -رحمهم الله- كانوا مشتغلين بالردود على المناوئين لهم وهذا أيضاً ردود العلماء السابقيين؛ كمنهج السنة لابن تيمية وغيره من الكتب التي تكون متoscلة. فالكتب التي يتسع فيها العلماء كراد المعاذ، وإغاثة اللها، وقد يقرءون أيضاً في كتب المواتع مثل: الرواجر عن افتراق الكبار، ومثل شرح ابن رجب للأربعين، ومثل طائف المعارف، ومثل كتب التاريخ يقرءون فيها للتزود. وذلك بلا شك يكتسب القراء والحاضرين فائدة كبيرة؛ لأنهم بذلك يس挺عون إلى هذه العلوم وإن لم يحفظوها حفظاً ولكنها تمر بهم، يمر بهم فوائد ومقالات يقولها أولئك المؤلفون السابقيون الذين نصحوا للأمة، والذين علموهم كيف يستفيدون وكيف يعلمون وكيف يذخرون، وهذه مراتبهم. ولا شك أن الطلب في ذلك الزمان فيه مشقة؛ حيث إن المشائخ إنما يتواجدون في المدن، فهذه المملكة مع اتساعها لا يوجد فيها علماء أكابر إلا في المدن كالمدينة ومكة وهذا البلد والأحساء والقصيم وأما بقية القرى فإنما فيها طلبة أو فيها معلمون للقرآن، ومتى حفظ الطالب القرآن انتقل إلى المدن إلى الرياض أو إلى القصيم أو إلى المدينتين يتعلم وينقطع عن أهله، قد يبقى سنوات ما تيسر له الرجوع إلى أهله، أو يرجع إليهم كل سنة شهرها أو نصف شهر ومع صعوبة المواصلات، وكذلك أيضاً عدم الاتصالات، عدم وصول المكالبات إلا بعد مدة قد يقطع خبره إلا بعد مدة. ومع ذلك فإنهم يتجمّدون المشقات، ويصبرون على الصعوبات، ويلاقى كل منهم تعباً، ويلاقي صعوبة، ويصبر على القرية، ويصبر على الفقر والفاقة وشدة الحاجة، ويصبرون على العري وعلى الوسخ وعلى الطماً والجحود وما أشبه ذلك؛ محنة منهم لنيل العلم ولحفظه ولأخذه عن منابعه وعن مشائخه وحملته فيصبر أحدهم مُدداً متطاولة؛ ربما يستمر عشرين سنة وهو في التعلم، وبعدهم يتعلم عشر سنين، وبعدهم ثالثين سنة على حسب تفاوتهم في الحفظ وقوتها الذكرة وسرعة الإدراك وما أشبه ذلك، هذه مسالكهم في طلب العلم ونفعهم الله تعالى وانتفعوا كثيراً بما حفظوا وصاروا من ورثة الأنبياء.